الدراسات الفلسفية

سياسة الرسول الكريم تجاه اليهود
ـ دراسة تحليلية ـ

الاستاذ المساعد الدكتور
محمدعلي محمدرضا الحكيم
جامعة الكوفة ـ مركز دراسات الكوفة

سياسة الرسول الكريم تجاه اليهود
ـ دراسة تحليلية ـ

The policy of the Holy Prophet towards Jews

الاستاذ المساعد الدكتور
محمدعلي محمدرضا الحكيم
جامعة الكوفة ـ مركز دراسات الكوفة

Assoc. Prof. Dr. Mohamed Ali Mohamed Reda Alhakeem
University of Kufa / Kufa Studies Center
mohammeda.alhakeem@uokufa.edu.iq

الملخص:

يتألف البحث من ثلاث مباحث رئيسية، الأول تناول تأريخ نزوح اليهود إلى بلاد الحجاز، وعرض الثاني المعاهدات التي تمت بين الرسول واليهود، وتطرق الثالث إلى المواجهات المسلحة التي نشبت بين الطرفين.

الكلمات المفتاحية:الرسول ، اليهود ، المعاهدة، المواجهة المسلحة .

Summary:

The research consists of three main sections. The first dealt with the history of the exodus of the Jews to the country of Hijaz, the second presented the treaties that were concluded between The prophet and the Jews, and the third dealt with the armed confrontations that broke out between the two parties.

Keywords: Prophet, the Jews, Treaty, Armed confrontation

المقدمة:

هذا البحث هو محاولة لدراسة موضوع مهم من الموضوعات التي تتعلق بسياسة الدولة الإسلامية، وسيرة النبي الأكرم تجاه الأقليات الدينية واليهود على وجه الخصوص. من نافلة القول إن الحديث عن سيرة الرسول الأكرم له أهميته في البحوث الإسلامية، كون إن هذه السيرة هي في العقيدة الدينية تجسيد للتعاليم

الإسلامية، ومن ثم فإن التماس تلك التعاليم بخصوص التعامل مع الأقليات الدينية، يتأتى عن طريق تسليط الضوء على سيرة الرسول ومعرفة طبيعة تعاطيه في هذا الشأن.

علاوة على إن الجالية اليهودية كان لها حضورا مهما في الدولة الإسلامية، وتأتي أهمية هذا الحضور من أعدادهم الكبيرة نسبيا لاسيما في مركز الدولة الإسلامية المدينة المنورة، فضلا عن ما يتمتعون به من أدوار مهمة على الصعيد الاقتصادي والسياسي في تلك المدينة. إلى جانب ذلك، فإن موضوع سياسة الدولة تجاه الأقليات، وما تتضمنه من حقوق وحريات يتمتع به أفرادها، يعد موضوعا مركزيا في المعايير المعاصرة عند تقييم النظم السياسية المختلفة وطبيعة الحكم عليها. من هنا جاء البحث الذي اعتمد منهج التحليل التاريخي، لدراسة سياسات الدولة الإسلامية بقيادة الرسول محمد (ص)، تجاه الأقلية اليهودية ومنعطفاتها الخطيرة وما ترتب عليها من آثار دموية مدمرة. قسم البحث إلى ثلاث مباحث رئيسية، تناول المبحث الأول تاريخ نزوح اليهود إلى الحجاز وأماكن استيطانهم، وعرض المبحث الثاني للمعاهدات والاتفاقات التي تمت بين الرسول واليهود، فيما أشار المبحث الثالث إلى تداعيات المواجهات المسلحة التي جرت بين الطرفين.

المبحث الأول: تأريخ اليهود في الجزيرة

إن الحديث عن التأريخ القديم ليس بالأمر الهين مع شحت المصادر واختلاف الاجتهادات، ومن هنا فإن الحديث عن تأريخ تواجد اليهود في الجزيرة العربية شائك ومعقد، لاسيما وإن هناك مؤشرات على تواجدهم في مراحل زمنية غابرة، ومع ذلك نجد من المفيد الإشارة إلى بعض الروايات، التي تسلط الضوء على تأريخ هذه الجماعة في بلاد العرب كمقدمة للدخول في موضوعنا.

لجأ الباحث المعاصر ولفنسون إلى ما جاء في كتاب العهد القديم من أخبار عن تاريخ اليهود، إذ عدّه المرجع الأساس، الذي يمكن أن نستقي منه أخبار حوادث الطوائف الإسرائيلية قبل الميلاد. فقد تحدثت صحف (أخبار الأيام) عن أول هجرة شهيرة في تاريخ بني إسرائيل إلى الأراضي العربية، حين سار بنو شمعون بماشيتهم إلى أرض طور سيناء بحثا عن المرعى، إلى أن وصلوا إلى أرض معان فاشتبكوا مع أهلها اشتباكا عنيفا، انتهى بانتصار بطون شمعون وتمزيقهم للبطون المعانية. وذهب العالم دوزي إلى أن هجرة بني شمعون هذه جرت قبيل عصر الملك داوود بحوالي عام ١٠٠٠ ق.م، في حين عارض المستشرق مرجوليوث هذا الرأي، واعتقد أن هذه الهجرة حدثت في عصر الملك حزقيال الذي حكم بلاد يهوذا بين عامي ٧١٧-٦٩٠ ق.م[١]. وناقش ولفنسون الرواية

المتقدمة الواردة في العهد القديم، إذ رأى أن الغموض والابهام يكتنفها من حيث أنها لم تؤكد على تأريخ نزوح بطون شمعون إلى جزيرة العرب، فضلا عن إنه استبعد فكرة نزوح جميع بطون شمعون من فلسطين، تاركة مدنها وثروتها مرة واحدة وفي نفس الوقت إلى بلاد أخرى، لا تتمتع بالخصب بدرجة أكبر من بلادهم التي نزحوا منها طلبا للمرعى. ويضيف الباحث، لو غضضنا الطرف عن هذه الاعتبارات وصدقنا الرواية الواردة في سفر أخبار الأيام، فإننا نعتقد بأن هذه الحادثة قد جرت في زمن قديم جدا، ربما في القرن ١٢ ق.م على أقل تقدير حيث لم يكن بنو إسرائيل قد عرفوا بعد تدوين الحوادث، فقد مضت عليهم قرون عدة حتى دار الزمن دورته واخذت الأحوال الاجتماعية والأدبية تتبدل، حين ظهر عند الشعراء والمفكرين الميل نحو تدوين تأريخ العصور الماضية[٢].

ولم تخلُ المصادر العربية شيئا من أخبار بني إسرائيل، فقد أورد صاحب الأغاني أن ساكني يثرب قبل بني إسرائيل، كانوا قوما من الأمم الماضية عرفوا بالعماليق وهم أهل عز ولهم بها زروع ونخيل، منهم بنو هف، وبنو سعد، وبنو الأزرق، وبنو مطروق. وكان لديهم ملكا ملك الحجاز يدعى الأرقم، سكن ما بين تيماء إلى فدك. ولما بعث النبي موسى (ع) جيوش بني اسرائيل لغزو القرى، بعث جيشا إلى العماليق وأمرهم بقتل القوم جميعهم إذا ظهروا عليهم ولم يستبقوا أحدا (هكذا ورد)، ولما انتصروا على العماليق قتلوهم جميعهم إلا ابنا للأرقم قد ضنوا به على القتل، وقالوا نذهب به إلى موسى يرى رأيه فيه، وحينما رجع الجيش كان موسى قد توفي. وبعد أن عرف بنو إسرائيل خبر الجيش وظهوره على القوم وقتلهم باستثناء الغلام، حكموا على أفراد الجيش بعصيان أمر النبي بأن لا يستبقوا منهم أحدا، ورفضوا دخولهم إلى الشام فرجعوا إلى يثرب، فكان ذلك أول سكنى لهم في تلك الناحية التي اتخذوا بها الآطام والمزارع[٣].

ونقل ابن خلدون رواية أخرى، ففي معرض حديثه من أن بعض مناطق بلاد الحجاز كانت مناطق آهلة للعمران، ذكر أن بني إسرائيل لما خرجوا عن طاعة نبي الله داود، فر (ع) مع سبط يهوذا إلى خيبر وأقام فيها سبع سنين، ثم عاد إلى بلاد الشام بعد أن استتب له الأمر[٤].

ثم أنه، قد تزايد عدد اليهود في الحجاز فيما بعد انتصار الروم وانهيار الدولة اليهودية واضطهاد اليهود، ما اضطر كثير منهم للهجرة إلى الجزيرة العربية، حيث ذكر صاحب الأغاني أن الروم لما انتصروا على اليهود في بلاد الشام، أمعنوا في قتلهم ووطئهم واعتدوا على نساءهم؛ على أثر ذلك خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين إلى بلاد الحجاز، وبعثوا روادهم لالتماس أراضي تصلح للعيش، فوجدوا بطحان ومهزور، واديان على تلاع أرض فيها مياه عذبة تنبت فيها الشجر فتحول القوم إليها، فنزل

بنو النضير على بطحان، ونزل بنو قريظة وبنو بهدل مهزور[٥].

غير إن بعض الباحثين المعاصرين لا يعول على مثل تلك الروايات، فكتب جواد علي: والحديث عن اليهودية بين العرب، وعن وجود يهود في أنحاء جزيرتهم، لا يمكن أن يكون حديثا تاريخيا مبنيا على العلم إذا ارتفعنا به إلى الميلاد وإلى ما قبل الميلاد. ولا يعني كلامي هذا عدم وصول يهود إلى جزيرة العرب، وعدم إقامتهم في أماكن منها. فهذا كلام لا يمكن أن يقال ولا يمكن قبوله، إنما أريد أن أقول إننا لا نملك نصوصا تأريخية تخولنا أن نتحدث عن اليهود في جزيرة العرب قبل الميلاد حديثا علميا، بأن نعين المواضع التي نزلوا فيها والأماكن التي وصلوا إليها، وما فعلوه هناك وفي أي عهد كان ذلك؟[٦]

وأضاف الباحث إن ما يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشا إلى الحجاز، واستقرار ذلك الجيش في يثرب بعد فتكه بالعماليق، وما ذكر من هجرة داود مع سبط يهوذا إلى خيبر وتملكه هناك وأمثال ذلك من القصص، لا أستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة، لإثبات أنهم ذوو نسب قديم وبأس شديد، وإن تاريخهم في هذه الأرض يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء بني إسرائيل[٧].

فيما أكد ولفنسون كما إننا لا نطمئن إلى الأخبار القليلة التي نصت عليها بطريقة غير مباشرة صحف العهد القديم، عن وصول جماعات إسرائيلية إلى الجزيرة العربية، ولا يمكننا اثبات هذه الأخبار اثباتا علميا، فإنه لا يمكن التعويل على أقاصيص من هذا النوع سردتها المراجع العربية على إنها أساطير شائعة. فإذا لم يستطع مؤرخو العرب أن يصلوا إلى أخبار ثابتة وموثوق بها عن بني النظير وقريظة، وفي أي وقت كان ظهورهم في بلاد العرب، فكيف لهم التمكن من الوصول إلى أخبار حقيقية عن الطوائف الإسرائيلية القديمة، التي بادت واندثرت من قبل أن يوجد بنو النضير وبنو قريظة؟[٨]

في ضوء ما تقدم يمكن القول، أن الجزيرة العربية قد استقبلت في مراحل تاريخية متعددة وفترات زمنية مختلفة، ولأسباب متباينة منها ما يتعلق بالبيئة الطبيعية، فحين تجدب الأرض تبحث الناس عن أماكن أفضل للرعي وأخصب للزراعة وأقر للعمران. ولربما أدت زيادة الكثافة السكانية لبني إسرائيل إلى تضييق أماكن العيش المناسبة ومحدودية الموارد؛ الأمر الذي دفع بعض الجماعات للهجرة لأماكن تتوفر فيها فرص العيش بشكل أفضل. أو منها ما يرتبط بالظروف السياسة فقد تعرضت دولة بني إسرائيل إلى هجومات من قبل دول كبرى واحتلوا أورشليم[٩]، فاضطروا إلى الفرار لأماكن أكثر أمنا وكانت صحراء الحجاز الملاذ الآمن لهم بعيدا عن هيمنت وتسلط تلك الدول، لاسيما وإن الأفاق كانت مفتوحة بين بلاد الشام وبلاد الحجاز، إذ

لا حواجز طبيعية تمنعهم ولا سلطة سياسية يخافون سطوتها، فقدمت جماعات من بني إسرائيل واستوطنت في بعض ربوعها، أما التفصيل فليس لدينا من المصادر المتاحة ما يثبت بصورة علمية دقيقة معلومات عن ذلك.

على أية حال، كانت يثرب عند هجرة الرسول إليها، في أيدي الأوس والخزرج فهم لهم السيطرة والسلطان، ولليهود آطامهم وقلاعهم في خيبر وتيماء وفي قرى أعالي الحجاز. وكان جل اعتماد اليهود على التجارة حيث اشتهروا بتجارة البلح والبر والشعير والخمور، كما امتهنوا الزراعة والصيد وتربية الماشية، وبعض الحرف المعروفة آنذاك مثل الصياغة والحدادة والنسيج، إضافة إلى ما اشتهروا به من معاطاة الربا بصورة فاحشة(١٠).

وكان الأحبار يتولون الأمور الدينية والنظر فيما يحدث بين الناس من خصومات وتنفيذ الأحكام، إذ لم يتمكن اليهود مع ما لهم من القلاع والآطام من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرض التي أنشأوا فيها مستوطناتهم، فلم تكن لهم ممالك وحكومات يحكمها حكام يهود، بل كانوا مستقلين وفي حماية سادات القبائل، يؤدون لهم إتاوات في كل عام مقابل حمايتهم والدفاع عنهم ومنع الاعراب من التعدي عليهم. وقد أدى التنافس بين سادات اليهود أنفسهم إلى نشوب معارك بينهم في زمن الجاهلية؛ الأمر الذي اضطر بنو القينقاع وبضغط من بني النضير وبني قريظة إلى الالتجاء إلى أحياء يثرب ومحالفة الخزرج، في قبال تحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس، فصاروا فرقتين متنازعتين(١١).

حلت اليهودية في بلاد العرب بعد أن تأثرت بالثقافة اليونانية، لأنها ظلت لقرون تحت الحكم اليوناني الروماني، وكان من أحبار اليهود مَن تعلم الفلسفة اليونانية وتأدب بآدابها، فتسربت تلك الثقافة إلى اليهودية، كما تسرب إليها شيئا من مبادئ القانون الروماني. ونتيجة لتواصل الجاليات اليهودية مع العرب بعد الهجرة إلى بلادهم، فقد انتشرت بعض مصطلحات الديانة اليهودية التي لم يسبق إليها العرب، من قبيل جهنم والشيطان وإبليس، وكذلك قضايا تتعلق بتأريخ خلق العالم والبعث والحساب والميزان، وبعض التفاسير التوراتية وما أحاط بها من أساطير وخرافات(١٢).

المبحث الثاني: عقد المعاهدة

يثرب إحدى مدن الحجاز تقع إلى الشمال من مدينة مكة وهي عبارة عن واحة خضراء، فكانت بيئة مثالية للعيش بالقياس إلى الصحاري الجرداء الواسعة التي طغت على جغرافية الجزيرة العربية. وتقع يثرب على هضبة عالية تحيط بها الجبال والحرات وهي تكوينات صخرية بركانية من أغلب جهاتها، فكانت حاجزا طبيعيا يحمي المدينة، وفي وسطها أراضي منبسطة خصبة تكثر فيها الآبار تصلح لزراعة الحبوب والنخيل،

إضافة إلى الوديان مثل وادي العقيق ووادي الرمة التي كانت تستخدم للزراعة والرعي.

وكان في يثرب ثلاث مجموعات كبرى: الأوس والخزرج واليهود، لكل واحد منها هوية وحلف، فالأولى والثانية كانتا قبيلتين عربيتين وثنيتين، ولهما أواصر دم توحدهما إضافة إلى العشائر العربية الصغيرة الأخرى، أما الثالثة فهي يهودية الديانة غير عربية الأصل، وكانت تشعر بهويتها هذه بقوة، ولكنها منقسمة إلى عشائر من دون أواصر دم فعلية تجمع بينهم أو مع العرب، وكانت لهم علاقات جوار وثيقة وأحلاف سياسية وحربية مع العشائر العربية تعود إلى حرب بعاث. لقد ظل طابع العنف طيلت خمسين سنة ماضية في هذه المدينة، الذي لم يتأتَ عن البداوة المتأصلة فيهم بحكم بنيتهم القبلية فحسب، وإنما كان العنف الداخلي والخارجي – إن صح التعبير– يتأتى من كون يثرب واحة كبيرة، وبالتالي فإن التغالب والنزاع ينبثق من مشكلات ذات علاقة بالسيطرة والتوسع على الأرض فيما بين العشائر، وذات صلة بموضوع الري. إذ تجذب الواحة العمران البشري والتوطن على الدوام بالقوة والغزوات[١٣].

ولم تكن الجالية اليهودية متحدة في ميولها السياسية والاجتماعية، فلم تظهر الألفة بينهم وكانوا في شقاق دائم، فقد حارب بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس في يوم بعاث ضد بنو قينقاع الذين كانوا إلى جانب الخزرج، وقد أمعنوا أولئك اليهود في قتلهم لبني قينقاع، ذلك لأن عداوة بني قينقاع لهم قديمة، إذ أكرهوا على الخروج من مزارعهم والاكتفاء بحيهم في يثرب الذي كان بحماية الخزرج[١٤].

هذه هي حال يثرب حين هجرة النبي إليها مع جموع من أصحابه بضمنهم نساء واطفال على شكل دفعات. لقد عبرت هذه الهجرة عن لحظة تاريخية بامتياز، إنها شاهدة على عظمة الإيمان وقوته، إذ كشفت عن مدى تعلق أولئك الناس بنبيهم وعقيدتهم. ففي عالم قائم على رابطة الدم لا يعرف غيرها، وداخل قبيلة ذات إدارة مركزية ونرجسية تنحصر مهمتها في توفير العيش الآمن لأبنائها؛ يظهر –هذا الفراق والقطع.. هذه الهجرة إلى المجهول– مدى ضخامة الحدث وخطورته، حيث تتبين قوة خلاف القبيلة مع أبنائها (المهاجرين) من جهة، والاحساس بالتضحية من جانب المهاجرين من جهة أخرى[١٥].

إلى جانب ذلك، كان إيمان أهل يثرب بالدين الجديدة، ثم دعوتهم للنبي واصحابه للقدوم والعيش معهم، واستعدادهم المطلق للدفاع عنه ضد الأعداء وهم كثر، كان ذلك خارج معادلة القبيلة الحاكمة وعنصرا حاسما في توازن العطاء، لاسيما حين يقارن بموقف قريش عشيرة النبي.

انطوت دعوة أهالي يثرب للنبي على أمل أن يشيع بين فرقائها جوا من السلام، حيث لم تسكن القلوب ولم تجف دماء الضحايا بعد ولم تحل

عقد الثأر بين الأخوة المتحاربين من أهل يثرب. لقد كانت الدعوة بمثابة الاستعانة بطرف محايد، وهي خطوة شبيهة بما عرفت به عرب الجزيرة حين كانوا يسعون في منازعاتهم إلى العرافين للاحتكام، كما هي قائمة في مجتمعات أخرى. ومن ثم كان أمام النبي مهمة أرساء دعائم سلام وإيجاد توازنات جديدة(١٦).

لم تكن مشكلة الصراع بين قبائل يثرب إلا واحدة من مشكلات كثيرة كانت بانتظار النبي حين الهجرة، فقد أدرك النبي أن أمامه مهام جسيمة عليه حلها قبل التفرغ لهدفه المركزي بنشر الدعوة، ليس أقلها مشكلة إعالة المهاجرين الذين فروا بأنفسهم وتركوا أموالهم وبيوتهم في مكة، والتي أقدم النبي على حلها بصورة فريدة في التاريخ الإنساني، وقد أثبت أهل يثرب (الأنصار) من خلاله (المؤاخاة) موقفا تاريخيا، حيث أصبح في ضوء هذه الخطوة المهاجر الغريب أحد أفراد أسرة أخيه الأنصاري.

وكان النبي (ص) قد أجرى وهو في مكة قبل هجرته إلى يثرب لقاءات عديدة مع بعض وجوه الأوس ثم الخزرج، نجح فيها بإقناعهم بالدخول في الدين الجديدة، وتضمنت اللقاءات مفاوضات انتهت إلى بيعة العقبة الأولى، ثم اعقبتها بيعة العقبة الثانية في العام الثالث عشر من البعثة. ويذهب أحد الباحثين إلى أن هذه الخطوة كانت بمثابة المعاهدة السياسية حيث أثبتت المسؤولية المشتركة بين الحاكم والمحكوم، وبذلك كانت ميثاقا فعليا لقيام الدولة الإسلامية في المدينة. ويضيف بإن قيام هذه الدولة على هذه الصورة تعتبر النموذج الأول لقيام الدولة التعاهدية الثيوقراطية في التاريخ، حيث يتفق أطرافها طواعية وبدون قهر على قيامها على أساس عقد، سياسي واجتماعي وعسكري واقتصادي قبل أن يعرف العالم نظام الدولة التعاهدية(١٧).

لقد كانت بيعة العقبة الأولى والثانية خطوة أساسية في بناء الدولة، إذ مهدت الطريق للنبي (ص) في بناء دولته، من خلال توفير الإقليم الذي يمكن أن يجتمع عليه المجتمع السياسي، ومن ثم استطاع النبي من توجيه المؤمنين بالهجرة إليه، وترتب عليهما تأمين العنصر الثاني من عناصر الدولة وهو المجتمع السياسي، المتكون من جماعة (المهاجرين) وجماعة (الأنصار) اللتان تكونان معا جماعة المسلمين، علاوة على الجماعة المتحالفة معهم (اليهود). ولم يأتي العنصر الثالث (السلطة) إلا بعد إقرار الميثاق التأسيسي (صحيفة المدينة)، الذي أقر تحالف هذه الجماعات –بعد مفاوضات أجراها النبي حين وصوله أرض يثرب– في مجتمع موحد يقيم على أرض محدد في ظل سلطة محدد بقواعد مثبتة في الصحيفة. ومن هنا نتبين أن الدولة كانت هاجسا فعليا للنبي منذ كان في مكة، وكانت بيعة العقبة بمثابة خطوة تأسيسية في طريق بناء الدولة. فضلا عن كونها

محاولة جادة في سبيل حل مشكلة النزاع الدموي المتواصل بين قبائل يثرب.

نأتي الآن على الصحيفة التي كتبها الرسول بعد مشاورات مكثفة بين الأطراف المتواجدة في مدينة يثرب، وقد اهتمت بصورة رئيسة في حل الآثار الناتجة عن الحروب والنزاعات، ومغادرة فكرة الثأر وتسوية المشكلة بدفع الدية ووضع قواعد فداء الأسارى، علاوة على تنظيم حركة ونشاط الجماعات التي قسمتها الصحيفة إلى وحدات إدارية عرفها بأسماء العشائر. شغلت هذه الموضوعات القسم الأول من الصحيفة الذي يرتبط بشؤون الجماعة الإسلامية، ولا أريد التفصيل فيه لأنه يخرج البحث عن إطاره.

أما القسم الثاني من الصحيفة فهو يتعلق بشؤون العلاقة مع اليهود كجماعة متحالفة مع الجماعة الإسلامية، وهو موضوع البحث.

إحدى المشكلات التي واجهت الرسول (ص) في يثرب كانت اليهود، الذين يقطنون المدينة وخارجها وكانوا يمسكون بأزمة التجارة والاقتصاد فيها. لقد أدرك الرسول أنه ما لم يصلح الأوضاع الداخلية، وما لم يضم اليهود إلى صفوفه، وبالتالي ما لم يقم وحدة عريضة في مركز دولته يستتب الأمن والاستقرار فيها، لم يتسنى له التفرغ لنشر الدعوة. وعلى هذا سعى النبي إلى إقامة تفاهم مع اليهود، باعتبار أن هناك توافق في العقيدة الدينية لكلا الجانبين كونهما موحدين لله، وباعتبار أن هذه الجماعة كانت لها علاقات وتحالفات قديمة مع قبيلتي الأوس والخزرج. من هنا أراد النبي أن يكرس هذا التفاهم بعقد معاهدة تعايش ودفاع مشترك معهم(١٨).

وقد ذكر ابن هشام بنود هذه المعاهدة من طريق ابن إسحاق(١٩). وقد كانت البنود التي تتعلق باليهود ما يقارب النصف منها، ما يدلل على أهمية هذه الجماعة، إلا أن الغريب في الأمر أن هذه المعاهدة لم تأتي على ذكر البطون الكبيرة من اليهود التي جاء ذكرها أعلاه، واكتفت بالبطون الصغيرة منها. وذهب المستشرقون في ذلك إلى رأيين: الاول: إن هذه المعاهدة كانت خاصة بالعرب والبطون اليهودية الصغيرة المنتشرة بينها المعدودة من مواليها. الثاني: أنها كانت تشتمل على البطون اليهودية الكبيرة، ولكن المؤرخين المسلمين المتأخرين قد حذفوا أسماءها فيما بعد، لأنه ساءهم أن يذكر فيها من حارب الرسول وسفك الدماء(٢٠).

ولكن ذكر أسماءهم يكون أدعى لكشف طباعهم في نكث العهود، وسببا في إثبات حق الرسول في معاقبتهم. علاوة على إن المصادر الإسلامية تشير إلى أكثر من معاهدة جرت بين النبي واليهود في يثرب وما حولها وفي أوقات مختلفة، وأن الرسول قد كتب لكل واحدة منها كتابا تعهدوا فيه أن لا يعينوا على الرسول ولا على أصحابه، بيد أو لسان ولا بسلاح أو كراع (مركوب) في السر والعلن، وإن نكثوا هذا التعهد

يكون النبي في حل منه. وقد مثل حيي بن أخطب قبيلة بني النضير، وكعب بن أسد عن بني قريظة، ومخيريق عن قبيلة بني قينقاع[٢١].

وهناك رأي أخر يذهب إلى أن الصحيفة اعترفت باليهود، ليس باعتبارهم كيان إداري (عشائري)، بل باعتبار أنهم جماعات دينية تابعة ومتحالفة مع القبائل العربية. وبالتالي فإن المقصود من يهود بني عوف بكل وضوح هم بني قينقاع، من حيث أن هؤلاء قد وقفوا في الحروب تحت راية الخزرج وخصوصا بني عوف منهم. وإن (يهود بني الأوس) الذين جاء ذكرهم في الصحيفة هم بكل جلاء بني النضير وبني قريظة، إذ لا شك أن هؤلاء اليهود قد شاركوا في يوم بعاث إلى جانب الأوس، وتحت راية قائد عربي من الأوس[٢٢].

ويمكن القول بأن هذا الرأي هو الأرجح من بين الأقوال؛ لأن المقصود أولا وبالذات في الصحيفة هم الأطراف التي تمثل أمة الإيمان (الإسلام)، أما الأطراف الأخرى فجاءت عرضا وبالتبع كونها متحالفة مع أطراف أمة الإيمان وليست ككيانات مستقلة، كما سياتي بيانه. وقد لا يتعارض هذا مع الرأي القائل بتعدد الكتب أو الصحف التي جرى التعاهد عليها بين النبي وبين اليهود، فربما جمعت أو الحقت تلك الكتب في كتاب أو صحيفة، تبلور وتتضمن تلك المعاهدات الخاصة مع مختلف الجماعات.

جاء في بداية الصحيفة إشارة إلى أن المؤمنين من قريش ومن أهل يثرب أمة واحدة، الأمر الذي يكشف عن هوية هذه الجماعة (الأمة) وفرادتها، ولئن كان مصطلح أمة متعدد المعاني في القرآن، إذ يدل على أفكار التقليد والاجتماع معا، فإن المقصود هنا تجمع في إطار الدين (الإسلام). فعندما يقول القرآن لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، فإنه يريد أن يقول على دين واحد، وحيث يشير القرآن إلى الأمم والجماعات البشرية القائمة على أساس الدم فإنه يعبر عنهم بألفاظ القوم والرهط.

وفي حال يثرب فإن هوية أمة المؤمنين تجب الأطر الاجتماعية الأخرى فتبدو على قدر كبير من الأهمية؛ إذ تنشئ واجبات التصرف كجماعة متضامنة متكافلة تتجاوز روابط الدم. فعلى المؤمنين أن يتصدوا للأعمال المنافية للعدل وارتكاب الاثم أو العدوان، وعليهم أن يتحدوا على من أذنب وإن كان ابنا لأحدهم، وعليهم أيضا مغادرة موضوع الثأر، إذ تصبح عملية معاقبة الجاني وتعويض أهل المجني عليه مسؤولية، لا ترتبط بشخص معين أو أسرة محددة وإنما هي عملية تضامنية تقع على المجتمع برمته[٢٣].

على إن مصطلح الأمة الذي ورد في متن الصحيفة، لم يقتصر على المؤمنين أو المسلمين من قريش وأهل يثرب، إذ أضافت إليهم عنصرا آخر يمكن أن يندرج ضمن مصطلح الأمة، وقد

عبرت عنه ب(ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم). وبذلك نتبين أن حالة الإيمان وإن كانت عنصرا أساسيا في تكوين جماع الأمة، إلا أنه أبقت المجال مفتوحا لمن يتبعهم ويلتحق بهم ويجاهد معهم، فيكون جزءا من هذه الأمة أيضا. وما يؤيد هذا المعنى ما ورد في الصحيفة أن اليهود أمة مع المؤمنين. ففي الوقت الذي تؤكد فيه الصحيفة على أن للمسلمين دينهم ولليهود دينهم، تؤكد على أن اليهود أمة مع المؤمنين، إذ إن هذه المعية في الوقت الذي تكون جامعة (في إطار أمة واحدة)، هي تتضمن تميزا وفرقة أيضا، من حيث أن لكل جماعة دينها وعقيدتها الخاصة بها والمتميزة عن الأخرى. وفي ضوء هذا الفهم أيضا نستطيع تفسير ما ذهبت إليه الصحيفة، حين أرادت تقسيم مدينة يثرب تقسيما إداريا اعتمدت على أسماء العشائر المسلمة، ولم تذكر أسماء العشائر اليهودية صريحا معتبرة أن العشائر اليهودية متحالفة معها ولاحقة بها، فذكرت يهود بنو عوف، ويهود بنو النجار.. . وفي ضوء بعض فقرات الصحيفة كان لليهود الحق في اختيار دينهم وعقيدتهم، ويترتب على ذلك حقهم في ممارسة شعائرهم وطقوسهم، والاحتفاظ بأماكن عبادتهم وأماكن تعليمهم، كما أن لهم الحق بالتقاضي في النزاعات الرجوع إلى شريعتهم، قال تعالى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء... (الاسراء:٤٤).

علاوة على أن لليهود ومن تبعهم من الموالي حق النصرة، ويترتب عليه أن من مسؤولية المسلمين المندرجين في هذه الصحيفة أو بعبارة أخرى من مسؤولية الدولة، الدفاع عن اليهود ومواليهم فيما لو تم الاعتداء عليهم سواء أكان من طرف داخلي (داخل يثرب) أم كان من خارجها. ومن الواضح أن هذه الفقرة تتضمن تأمين حماية أموال اليهود وممتلكاتهم من التعدي عليها، وبذلك كان جوف هذه المدينة حرام على ما في الصحيفة من أطراف، بمعنى أنها حرم آمن لا يجوز التعدي عليها. كما نصت الصحيفة على أن لليهود حق النصح والنصيحة والبر نحوهم دون الإثم.

في مقابل ذلك، أشارت الصحيفة إلى بعض الواجبات التي تقع على اليهود، منها المشاركة في الدفاع عن المدينة ضد أي اعتداء يطالها، بما في ذلك من بذل للنفقات في دعم ما يتطلبه المجهود الحربي من احتياجات، ومنح النصح وتحريم التعاون أو تأمين الحماية للمعتدين، وأن يتكافلوا بينهم وبين المسلمين لاحترام ما أقرته هذه الصحيفة من مسؤوليات، وأن الاخلال من أي طرف بتلك المسؤوليات يعرضه إلى عقوبات صارمة.

المبحث الثالث: المواجهة المسلحة

لقد كانت الرسالة الإلهية التي حملها الرسول محمد (ص) إلى الناس، تقوم على الإيمان بالإله الواحد وبالرسالات السابقة التي جاء بها الأنبياء السابقين، وإن هذه الرسالة لا تختلف عن ما سبقها، وإن هي إلا امتداد لمجرى تلك الرسالات ومصدق بها وخاتمة لها، وإن كل أولئك الأنبياء هم محل تقدير وتقديس لدى المسلمين، (لا نفرق بين أحد من رسله) (البقرة:٢٨٥). وقد أفاض القرآن في العصر المكي من ذكر قصص الأنبياء والدعوة إلى الاتعاظ من أخطاء الأمم السالفة.

ومن المفترض أن هذا الطرح لا يتعارض مع عقائد أهل الكتاب، بل هو يتناغم مع مشاعرهم لاسيما وإن هؤلاء كانوا في بيئة اجتماعية بعيدة كل البعد عن فكرة الإله الواحد، بيئة وثنية تهبط في عقائدها إلى مستوى عبادة الأوثان التي يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو الخشب.

إلى جانب ذلك، كان أسلوب الرسول في نشر الدعوة قائم على الحجة والبرهان، ولا يتضمن أي نوع من أنواع الاكراه، (لا إكراه في الدين) (البقرة: ٢٥٦). وكان الخطاب تجاه أهل الكتاب خاصة يستند إلى قاعدة مشتركة، وهو (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا) (آل عمران:٦٤). ثم يحدد ضوابط للحوار فيؤكد: (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) (النحل:١٢٥).

هذه الأمور كان يهدف النبي منها ومن ورائه الوحي، كسب أهل الكتاب باعتبارهم كذلك لقبول الدين الجديد والانخراط في أمة الإسلام، أو لا أقل من أن يكونوا إلى جانبه أو تحييدهم في معركته الضارية ضد الشرك والمشركين، لاسيما اليهود منهم الذين كانوا يمتلكون قوة لا يستهان بها في مركز دعوته ودولته (يثرب).

لم يثمر أسلوب النبي الرقيق ولا الجدالات الكثير بما كان متوقع منها، إذ تذكر المصادر أن عددا قليلا ممن أسلم من اليهود، وكان أبرزهم عبدالله بن سلام ومخيريق، وهما من علماء اليهود وقادتهم الاجتماعيين، ولكن الغالبية العظمى من اليهود ظلوا على عقيدتهم، وزادوا من مناظراتهم ولجاجهم في الجدل، والبحث عن أي ثغرة للإيقاع بالمسلمين سواء في مجال العقيدة أم في مجال السلوك[٢٤].

ثم انتقلت المناقشة إلى مخاصمة كلامية فجعل التنزيل يلوم اليهود ويعنفهم، (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين (البقرة: ٨٩)، (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) (آل عمران:٢٢).

ثم أخذ اليهود يرمون الأنصار بقوارص الكلم، واشتد النفور حتى كانت المخاصمات تقع في الشوارع يتداولون فيها الألفاظ القبيحة، ونزلت الكثير من الآيات التي تتضمن طعنا في اليهود، (مثل الذين حملّوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) (الجمعة:٥)، وكذلك (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) (المائدة:٨٥). ونجم عن ذلك أزمة سياسية جعلت تشتد يوما بعد آخر، ولم يمض على قدوم النبي إلى يثرب سوى ثمانية عشر شهرا[٢٥].

علاوة على أن بعض اليهود قد حاولوا أن يستغلوا رواسب الخلافات ويؤجج العداء القديم بين الأوس والخزرج، فقد ذكر ابن إسحاق أن شاس بن قيس وكان من بني قينقاع وشديد الضغن على الإسلام، قد مر في جمع من الصحابة بينهم نفر من الأوس والخزرج، فغاظه ما بينهم من ألفة بعد ما كانوا عليه من عداوة في الجاهلية، فأمر فتى من اليهود بالذهاب إلى المجلس، وذكر يوم بعاث وما تبادلوا فيه من أشعار لإثارة الفتنة بينهم. ففعل الغلام ما أمر، فتفاخروا.. وتنازعوا.. وغضب الفريقان، وقال أحدهم: إن شئتم رددناها جذعة، وتنادوا السلاح.. السلاح. بلغ ذلك النبي فخرج إليهم وقال: يا معشر المسلمين الله.. الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به.. فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، فبكوا وعانقوا بعضهم[٢٦].

وفي أعقاب معركة بدر ولم يكن الجيش بعد قد رجع إلى المدينة، وصل نبأ انتصار المسلمين عن طريق رجلين منهم، الأمر الذي ساء كعب بن الأشرف وكان شاعرا وخطيبا في بني النضير، فقال: والله لئن كان محمد أصاب أشراف العرب وملوك الناس (يعني سادة قريش)، لبطن الأرض خير من ظهرها. وبدأ يبث الاشاعات للتشكيك في الانتصار. ولما تيقن من خبر النصر، أخذ ينشد أشعارا يرثي قتلى المشركين من قريش، ويسئ للرسول وأصحابه ويتعرض لنسائهم بحديثه؛ وما كان من المسلمين إلا أن خططوا لكمين أوقعوه فيه فقتلوه[٢٧]. وجاء اليهود إلى النبي يشكون إليه أمرهم، ويذكرون له قتل كعب غيلة بلا جرم معلوم، وكان جواب النبي: أنه آذانا وهجانا، ولو قر كما قر غيره ممن هو على رأيه ما أصابه شر. وبعد حديث طال بينهم دعاهم النبي إلى أن يكتب معهم كتابا يحترمونه، وخافت اليهود وذلت وإن بقى في نفسها من محمد مابدأ من بعد أثره[٢٨].

ويميل بعض المستشرقين في تفسير الأحداث الدامية اللاحقة -كما هو منهجهم- وفقا للمصالح المادية البحتة، إلى الرأي القائل بأن النبي كان يرجو أن يدخل اليهود الإسلام بطريق المجادلة، ولما لم تنجح معهم صبر عليهم إلى يوم بدر، حيث لم يشتركوا في محاربة قريش وقد

انتصر المسلمون فيها انتصارا كبيرا، حينئذ صارت الظروف ملائمة للدخول معهم في حرب دموية، وشرع المسلمون يأخذون الثأر من الجماعات التي أساءت وطعنت في أعراضهم، وصمم الأنصار على أحد أمرين: أما أن يدخل اليهود في الإسلام، أو محاربتهم حتى الجلاء؛ وكان المهاجرون ينتظرون ذلك بفارغ الصبر، لأن حالتهم كانت سيئة ويطمعون بالسيطرة على أموال ومزارع وبيوت اليهود(٢٩).

لكن، من المعلوم أن قريش لم تترك النبي والمسلمين على حالهم بعد الخسارة القاسية التي منيت بها في بدر، بل تزايد خطرهم خصوصا وإن الأخبار تترى عن تحرك قرشي للقضاء على المسلمين في عقر دارهم، فخطر قريش ماثل في ذهن النبي هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن عهد أهل يثرب بالسلام والاستقرار جديد ولم تترسخ قواعده بعد في نفوس الأخوة المتحاربين.

في ظل هذه الظروف ماذا يكون موقف النبي؟ وهو يرى أن الحوار مع اليهود لم يبق في حدوده، وأن الخصام نزل إلى الشارع، وانتشرت البلبلة التي تزعزع الأمن الداخلي. لقد جرى العرف في الأنظمة السياسية إلى اليوم حتى لدى أكثرها تمسكا بالحريات وحقوق الإنسان، إلى الأخذ بما يعرف بقانون الطوارئ حين يدهم الدولة خطر خارجي، حيث تعمد إلى منع كل ما من شأنه إثارة البلبلة والشقاق في صفوف الجبهة الداخلية.

في ضوء هذا المنطق لم يسكت النبي (ص) عن تمادي اليهود في اثارت المشاكل، لاسيما نحو بني قينقاع الذين كانوا يسكنون في حي من أحياء المدينة، فعزم على ردعهم فقال لهم: يا معشر يهود احذروا من الله ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم...، قالوا: يامحمد... لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس(٣٠).

حري بهذا الجواب أن يصعّد من الأزمة، ويكشف عن وصول الأمور إلى حافة الهاوية، ومن ثم فإن أي شرارة قد تسبب اشعال فتيل الحرب، وقد كانت حادثة المرأة المسلمة في سوق بني قينقاع هي الشرارة التي أشعلت الحرب. حيث قدمت امرأة من المسلمين على سوق بني قينقاع، فجلست إلى أحد الصاغة لكي تبيع حاجتها، فجعلوا اليهود يلحون عليها أن تكشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها من دون علمها، فلما قامت انكشفت سوأتها وضحكوا، فصاحت مستنجدة، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، واجتمع يهود بني قينقاع على الرجل المسلم وقتلوه، فثارت ثائرة المسلمين على اليهود(٣١).

ولو أن بني قينقاع تداركوا الأمر وذهبوا إلى النبي من أجل حل النزاع، لربما كان سببا في

نزع فتيل الأزمة، سوى أنهم أحسوا خطورة الموقف فتركوا أسواقهم وعادوا إلى قلاعهم يتحصنون بها، فسار إليهم النبي وحاصرهم خمس عشرة ليلة لا يطلع منهم أحد. بعدها استسلموا لحكم النبي فكتفوا وهمّ بمعاقبتهم، فجاءه عبدالله بن أبي وطلب منه الإحسان لمواليه من بني قينقاع، وألح عليه بشدة وقال: لا أتركك حتى تحسن إليهم، فأعرض عنهم النبي بشرط الجلاء عن المدينة من دون سلاحهم وأموالهم(٣٢).

وفي السنة الثالثة للهجرة كانت معركة أحد، فجاء مخيريق وكان من يهود بني ثعلبة بن الفطيون في ذلك اليوم إلى اليهود، وقال لهم: يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، فقال: لا سبت، فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله فقاتل معه حتى قتل(٣٣).

وكان في السنة الرابعة للهجرة أن خرج الرسول (ص) في جمع من أصحابه إلى بني النضير، من أجل الاستعانة بهم في دفع دية قتيلين من بني عامر على وفق معاهدة كانت بينهم، فلما أتاهم وطرح عليهم موضوع الاعانة لدفع قيمة الدية، أظهروا استجابتهم لطلب النبي وراحوا يتناجون فيما بينهم للتخطيط لاغتياله، واستقر رأيهم على أن يصعد أحدهم إلى سطح الدار ثم يلقي عليه صخرة. غير أن الوحي قد أخبر الرسول بمكيدة اليهود، فانسحب من المكان ورجع إلى المدينة دون أن يلتفت إليه أحد، ولما عاد أصحاب رسول الله أخبرهم (ص) بما همت به اليهود من الغدر به(٣٤).

إثر ذلك، دعا رسول الله محمد بن مسلمة ليبلغ بني النضير قوله: قد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي. أخرجوا من بلادي فقد أجلتكم عشرا، فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه. لقد أحدث هذه الرسالة الشديدة اللهجة انكسارا كبيرا بين يهود بني النضير، وأخذوا يتلاومون وقالوا لمبعوث النبي: ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجل من الأوس (لما بينهم من تحالفات قديمة)، وأجاب المبعوث: تغيرت القلوب. وقد كان هذا الاجراء مطابقا لما نص عليه ميثاق التعايش الذي عقده الرسول مع اليهود وقد مر ذكره، والذي وقع عليه عن يهود بني النضير حيي بن أخطب، فقد جاء في أحد بنود العهد، ألا يعينوا على الرسول ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح....فإن فعلوا فرسول الله في حل من سفك دمائهم، وأخذ أموالهم وسبي نسائهم(٣٥).

وقد أغرى جماعة من المنافقين منهم عبدالله بن أبي ومالك بن أبي قوقل وغيرهما اليهود بالصمود في وجه المسلمين، فقد بعثوا إليهم أن اثبتوا وتمنعوا في حصونكم، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم. وقد جرأت هذه الوعود بني النضير فلم يرضخوا

للتهديد وتمنعوا بحصونهم وعزموا على الحرب. فلما خرج النبي بالجيش إليهم حاصرهم ستة أيام، ولم يفِ المنافقون بوعودهم، وقذف الله في قلوب اليهود الرعب، فسألوا الرسول أن يجليهم ويكف عن دمائهم ويسمح لهم حمل ما استطاعت إبلهم حمله من أموالهم، فوافق الرسول على طلبهم وخرجوا إلى خيبر، ومنهم من ذهب إلى الشام[٣٦]. وفي هذا الصدد جاء في التنزيل: ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحد أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون (الحشر:١١-١٢).

ولما نزل أشراف بني النضير في خيبر أخذوا يفكرون بالثأر من المسلمين، فعزم جماعة من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع، وهوذة بن قيس الوالبي، وأبو عمارة الوالبي وغيرهم، عزموا على الخروج إلى مكة، وصاروا إلى أبي سفيان وطافوا على وجوه قريش، فذكروا لهم ما نالهم من الرسول وسألوهم المعونة على قتاله. فقالت قريش: يا معشر يهود أنتم أهل الكتاب الأول والعلم السابق، وقد عرفتم الدين الذي جاء به محمد وما نحن عليه من الدين، فديننا خير من دينه أم هو أولى بالحق منا؟ فقال اليهود لهم: بل دينكم خير من دينه، فنشطت قريش لما دعوهم إليه من حرب رسول الله (ص). ثم خرج الوفد حتى أتى غطفان فدعوهم للتظافر على حرب الرسول، وضمن لهم غطفان النصرة بعد سماعهم سبق قريش لهم على ذلك[٣٧]. وقد جاء في الذكر الحكيم: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا (النساء: ٥١).

وقد لام الكاتب اليهودي المعاصر اسرائيل ولفنسون هذه الخطوة، وذهب إلى أن الذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين، حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية. لأن بني إسرائيل الذين كانوا حاملي راية التوحيد لقرون، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم في سبيل أن يخذلوا المشركين. هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الاصنام إنما يحاربون أنفسهم بأنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصي بالنفور من أصحاب الاصنام والوقوف معهم موقف الخصومة[٣٨].

وخرجت الأحزاب التي تحالفت على محاربة الرسول، وحاصرت المدينة التي حفر المسلمون حولها خندقا. ولما طال الحصار دون جدوى، خشي حيي بن أخطب زعيم اليهود وقائد فكرة تأليب العرب على محمد (ص)، من انصراف

الأحزاب فيصلى اليهود وحدهم نار المسلمين. وكان بنو قريظة حينها متمسكين بموادعتهم للنبي، ولو نقضوا هذا العهد لانقطع المدد والميرة عن المسلمين، وفُتح الطريق أمام جيش الأحزاب إلى المدينة من ناحيتهم؛ لذا بذل حيي بن أخطب جهده لإقناع زعيم بني قريظة بالتخلي عن المسلمين، حتى وافق وخرج عن حياده علانية، فقطع بنو قريظة المدد عن المسلمين، وأصبح الطريق أمام جيش الأحزاب سالكا من جهتهم إلى داخل المدينة نحو البيوت الآهلة بالنساء والأطفال. سوى أن حكمة النبي وتدابيره الاحترازية وهبوب العواصف أدت إلى تفرق الأحزاب ونكوصهم[٣٩]. قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعلمون بصيرا (الأحزاب:٩).

على أنه لم يكن في مقدور النبي أن يترك بني قريظة بعد أن قفل الأحزاب راجعين، إذ لم يأمن من أن يكرر المشركون فعلهم في تجييش القبائل والهجوم على المدينة، فكان يهود بني قريظة العدو الذي يهدد كيان الإسلام في الخاصرة. على هذا أمر رسول الله المسلمين بالتوجه إليهم فورا، وحاصر المسلمون حصون بني قريظة وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة. وقد طلب بنو قريظة من الرسول أن يعاملهم معاملة بني النظير ويسمح لهم بأن يحملوا أموالهم ويخرجوا؛ إلا أن الرسول لم يقبل طلبهم لأنه لم يأمنهم على تحريك المشركين كما فعل بنو النضير. بعدها قرر بنو قريظة التسليم للمسلمين دون قيد أو شرط[٤٠].

وقد تدخلت قبيلة الأوس في القضية إذ ألحت على النبي (ص) أن يعامل أحلافهم –بني قريظة– كما عامل بني النضير أحلاف الخزرج، ولكن النبي اقترح تحكيم زعيمها سعد بن معاذ، فوافق الأوسيون ووافق بنو قريظة على النزول عند حكم سعد. غير إن سعدا حكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، وهكذا طبق الحكم عليهم[٤١].

لم يكن هذا الحكم المشدد تجاه يهود بني قريظة خارج أطر القواعد والموازين المتعارفة، حيث إن ميثاق التعايش الذي أبرم بين الرسول واليهود – وقد مر ذكره آنفا– يقضي، بقتل الرجال وسبي النساء وأخذ الأموال فيما لو نقض اليهود العهد المبرم بينهم.

ثم إن هذا الحكم يماثل حكم التوراة في القضية، فقد جاء في سفر التثنية: حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن اجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كُل غنيمتها فتغنمها لنفسك،

وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك[٤٢].

إلى جانب ذلك، فإن الحكم المخفف نوعا ما تجاه بني قينقاع وبني النضير، القاضي بجلائهم وحمل ما أمكنهم من الأموال، جاء بنتائج سلبية تجاه الدولة الإسلامية، حيث إنها لم تسلم من خياناتهم وشغبهم بعد ما أبعدوا عن المدينة، ولو تحدثنا عن ذلك لطال بنا الحديث، سوى أن ما ذكرناه من مواقف لكعب بن الاشرف وحيي بن أخطب وغيرهما من قادة اليهود وزعمائهم، يوضح الصورة التي كان اليهود عليها، ومن ثم جاء هذا الحكم على بني قريظة نتيجة للتجربتين المريرتين السابقتين.

ارتعدت فرائص يهود خيبر لما وصلهم خبر ما حل بإخوانهم في يثرب، وقد صرح سلام بن مشكم لزعماء خيبر بأن الخطر يتهدد كيان اليهود في الحجاز، وأبان لهم أن الواجب عليهم أن يبادروا إلى تأليف تحالف يضم يهود خيبر وتيماء ووادي القرى للزحف على يثرب. وقد علم الرسول بما دار في خلد يهود خيبر، فأخذ يتهيأ لقتالهم ولكنه أجله إلى أجل قصير لأسباب سياسية. غير أن المسلمين أخذوا يرسلون الوفود لقتل زعماء خيبر كمقدمة للمواجهة، وكان حصيلة تلك الخطوة قتل زعيمان كبيرا النفوذ والسلطة، هما: سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام[٤٣].

كان على رسول الله أن يحل مشكلة رأس الحربة –وهم قريش– لدى تحالف الأحزاب، وبالفعل فقد تم له (ص) ذلك من خلال صلح الحديبية، فبهذه الوثيقة استطاع النبي أن يحيد قريش في معركته مع اليهود جناح الأحزاب. ولكي يمنع من وصول المساعدات والامدادات ليهود خيبر، من ناحية القبائل العربية المشركة في الشمال الجناح الثاني للأحزاب، كان الجيش قد استخدم مبدأ الاستتار في خروجه حتى لا يعرف العدو مقصده الحقيقي. وحين وصل جيش الإسلام إلى وادي الرجيع نزل بين خيبر وقبيلة غطفان، ولما سمعت غطفان بقدوم الجيش تظاهروا لإمداد اليهود، ولكنهم سمعوا حسيسا من خلفهم فظنوا أنهم هم المقصودون، فرجعوا إلى ديارهم لحمايتها وتركوا اليهود يواجهون مصيرهم لوحدهم، وبهذا قطع الرسول الطريق أمام أي محاولة لإمداد يهود خيبر[٤٤].

وبعد حصار حصون خيبر المنيعة ومناوشات مستمرة، لم يستطع جنود الإسلام أن يحرزوا انتصارا حاسما بعد مرور أكثر من عشرة أيام، فقد ظلت الحصون تبدي مقاومة عنيفة من قبل اليهود، فعلى الرغم من محاولات الجيش اقتحامها إلا أنها فشلت في الوصول إليها، حتى جاء دور الإمام علي (ع) الذي استطاع أن يقتحم حصون خيبر وقتل قادتهم واستسلام الآخرين.

وقد وافق النبي (ص) على طلب يهود خبير بالبقاء في مساكنهم، وترك بساتينهم بأيديهم على أن يكون نصف محصولها السنوي للمسلمين. ولما سمع يهود فدك بمصير يهود خيبر، طلبوا الصلح مع الرسول، فصالحهم على مثل ما صالح أهل خيبر. ولكن خيانة اليهود لم تنتهي بعد، إذ أرسلت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم لنبي الله شاة مسمومة، فلما تناول منها لم يسغها ولفظها. ثم استدعى المرأة وسألها عن الشاة فاعترفت بذنبها، ومع ذلك تجاوز عنها وتركها لحال سبيلها(٤٥).

الخاتمة:

بعد هذه الجولة في تاريخ اليهود في البلاد العربية، وما رافقها من أحداث سواء كانت سلمية تعبر عنها تفاهمات ومعاهدات عيش مشترك، أم مثلت أعمالا حربية دموية جرت في عصر الرسالة، لابد أن نستذكر أهم النقاط التي عرض إليها البحث، وهي:

١- لقد أكد البحث بأن ليس هناك من معلومات تؤيد بصورة موثوقة تفاصيل هجرات الطوائف اليهودية إلى بلاد العرب، لكن ما هو مؤكد أن هناك هجرات يهود حدثت في مراحل تاريخية مختلفة، وكان ذلك لأسباب مختلفة منها ما يتعلق بالبيئية وحالات الجدب، أو نتيجة زيادة الكثافة السكانية، أو ما يرتبط بالظروف السياسية وعمليات الاضطهاد والهجرة القسرية.

٢- وكانت الجاليات اليهودية التي هاجرت من أماكن مختلفة قد استوطنت في بعض مناطق الحجاز مثل يثرب وتيماء وخيبر وغيرها، واتخذوا الحصون والقلاع والآطام لحمايتهم من أي هجوم خارجي قد يتعرضون له. ولم تعرف عنهم أن لهم ممالك في بلاد الحجاز وانما كانت لهم حياة مستقلة، منها ما كان تحت حماية القبائل العربية الكبيرة، يتولى فيها الاحبار الشؤون الدينية والنظر في المنازعات التي تجري بينهم. وقد اعتمد اليهود على الزراعة والتجارة والرعي كوسائل للمعيشة إضافة إلى بعض الحرف المعروفة آنذاك، فضلا عن ما اشتهروا به من التكسب بالربا.

٣- ولما قدم الرسول إلى يثرب كانت هناك ثلاث قبائل يهودية تستوطنها وهي: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، ولم تكن العلاقات السائدة بينهم علاقة وئام وسلام، فقد نشب التنافس والصراع الدموي بينهم وأدى إلى تحالف بنو قينقاع مع الخزرج في قبال تحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس في حرب بعاث أخر حلقات الصراع الدموي بين الفريقين.

٤- أرسي الرسول في يثرب دعائم سلام قائم على معاهدات تعايش مشترك بين الأطراف الرئيسية الثلاث، الأنصار (الأوس والخزرج)، المهاجرين (مسلمي قريش وغيرهم)، اليهود. وفي ضوء هذه المعاهدة تحقق لليهود الحق في العيش والعمل بحرية وتأمين الحماية لهم، وحرية

اختيار العقيدة وممارسة شعائرها والتقاضي في المنازعات على مقتضى تعاليمها، وترتب عليهم مسؤولية المشاركة في الدفاع عن المدينة وفي الجهد الحربي، فضلا عن تقديم النصح والتضامن القاضي بحرمة التعاون مع العدو.

٥- استند الرسول في دعوته الدينية على الحجة والبرهان، وعلى قاعدة مشتركة مع أهل الكتاب، تقوم على عقيدة الإيمان بالإله الواحد وعدم الشرك به، ثم حدد ضوابط للحوار معهم قائم على الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى. غير أن هذه الدعوة لم تلق آذان صاغية من قبل اليهود سوى نفر قليل منهم، وقد شغلت الحوارات مع أهل الكتاب لاسيما اليهود مساحة واسعة من القرآن، وعبرت عن تقدير وتقديس لحركة الأنبياء السابقين بما فيهم أنبياء بني إسرائيل، وحذرت من حالات الانحراف والتمرد التي وقع فيها الاقوام السالفة وأشارت لعواقبهم السيئة.

٦- أظهر اليهود لجاجا في الحوار وسرعان ما تحول إلى مخاصمات مع المسلمين، فجعل التنزيل يلوم اليهود ويعنفهم، ثم اشتد النفور بين الطرفين حتى صار الخصام في الشوارع يترامون فيها بألفاظ قبيحة، نجم عنه أزمة سياسية أخذت تشتد يوم بعد آخر.

٧- اتخذ يهود بني قينقاع دورا سلبيا تجاه الدولة الإسلامية الفتية، بإثارة النزعات القبلية ورواسب الخلافات وزعزعت الأمن الداخلي، الأمر الذي أزّم موقف المسلمين تجاههم، وكانت حادثة الاعتداء على المرأة وما نتج عنه من النزاع والتقاتل هي الفتيل الذي أشعل الحرب ضدهم وتقرر جلائهم.

٨- وكان انحياز كعب بن الأشرف شاعر بني النضير للمشركين وتعديه على الرسول والمسلمين بعد بدر، ثم نقض بنو النضير العهد بقعودهم عن نصرة المسلمين في أحد، علاوة على محاولتهم -بعد ذلك- اغتيال الرسول، وتجاوبهم مع دعوة المنافقين للتمنع بالحصون واستعدادهم لمواجهة المسلمين؛ الأمور التي أدت إلى حصارهم ثم جلائهم بعيدا عن المدينة.

٩- في حين كان نقض بنو قريظة العهد مع المسلمين، أثناء حصار الأحزاب الرهيب للمدينة وقطع الامدادات عنها، وإحداث ثغرة خلف جيش المسلمين باتجاه البيوت الآمنة؛ الأمر الذي قوض حالة السلام، فقد اندفع جيش المسلمين لحصار بني قريظة ثم القضاء عليهم.

١٠- وكان تحريض يهود خيبر لقريش والقبائل العربية المشركة الأخرى وتجييشهم ضد المسلمين، ومشاركتهم في معركة الأحزاب وحصار المدينة، قد أدى إلى مسير جيش المسلمين لحصار حصن خيبر حتى انهياره.

الهوامش:

(١)ولفنسون\اسرائيل\تأريخ اليهود في بلاد العرب\ص٢-٣.

(٢)المصدر السابق\ص٤-٥.

(٣)الاصفهاني\أبي الفرج\الأغاني\ج٢٢\ص٧٧.

(٤)ابن خلدون\عبدالرحمن بن محمد\تأريخ ابن خلدون\مج١\ص٥٤٢.

(٥)الاصفهاني\أبي الفرج\الأغاني\ج٢٢\ص٧٨.

(٦)علي\جواد\ المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام\ج٦\ص٥١١.

(٧)المصدر السابق\ج٦\ص٥١٦-٥١٧.

(٨)ولفنسون\اسرائيل\تأريخ اليهود في بلاد العرب\ص٧.

(٩)اليهودي\بوسيفوس\تأريخ اليهود\ص١٢٠ وما بعدها.

(١٠)علي\جواد\ المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام\ج٦\ص٥٣٥،٥٣٢.

(١١)المصدر السابق\ج٦\ص٥٣٢-٥٣٣.

(١٢)أمين\أحمد\موسوعة الحضارة الإسلامية\مج١ (فجر الإسلام)\ص٤١.

(١٣)جعيط\هشام\في السيرة النبوية\ج٣\ص ٤٥-٤٦.

(١٤)ولفنسون\اسرائيل\تأريخ اليهود في بلاد العرب\ص١٠٧.

(١٥)جعيط\هشام\في السيرة النبوية\ج٣\ص٥٦.

(١٦)المصدر السابق\ج٣\ص٥٧.

(١٧)العربي\محمد ممدوح\دولة الرسول في المدينة\ص١٥١-١٥٢.

(١٨)السبحاني\جعفر\سيد المرسلين\ج٢\ص٢١.

(١٩)ابن هشام\عبد الملك بن هشام الحميري\السيرة النبوية\ج٢\ص٣٤٩-٣٥١.

(٢٠)ولفنسون\اسرائيل\تأريخ اليهود في بلاد العرب\ص١٢٠-١٢١.

(٢١)المجلسي\محمدتقي\بحار الأنوار\ج١٩\ص١١٠-١١١.

(٢٢)جعيط\هشام\في السيرة النبوية\ج٣\ص٦٣-٦٤.

(٢٣)المصدر السابق\ج٣\ص٦٨-٦٩.

(٢٤)السبحاني\جعفر\سيد المرسلين\ج٢\ص٢٨-٢٩.

(٢٥)ولفنسون\اسرائيل\تأريخ اليهود في بلاد العرب\ص١٢٣-١٢٥.

(٢٦)ابن هشام\عبد الملك بن هشام الحميري\السيرة النبوية\ج٢\ص٣٩٦-٣٩٧.

(٢٧)السبحاني\جعفر\سيد المرسلين\ج٢\ص١٣٢-١٣٣.

(٢٨)عثمان\حافظ\الإسلام والصراعات الدينية\ص٦٣.

(٢٩)ولفنسون\اسرائيل\تأريخ اليهود في بلاد العرب\ص١٢٧.

(٣٠)ابن هشام\عبد الملك بن هشام الحميري\السيرة النبوية\ج٢\ص٥٦١.

(٣١)المصدر نفسه.

(٣٢) الطبري\محمد بن جرير\تاريخ الطبري\ج٢\ص٤٨٠-٤٨١.

(٣٣)المصدر السابق\ج٢\ص٥٣١.

(٣٤)ابن هشام\عبد الملك بن هشام الحميري\السيرة النبوية\ج٣\ص٦٨٢-٦٨٣.

(٣٥)السبحاني\جعفر\سيد المرسلين\ج٢\ص٢٠٨-٢١٠.

(٣٦)ابن هشام\عبد الملك بن هشام الحميري\السيرة النبوية\ج٣\ص٦٨٣.

(٣٧)المفيد\محمد بن محمد بن النعمان\الارشاد\ج١\ص٩٤-٩٥.

(٣٨)ولفنسون\اسرائيل\تأريخ اليهود في بلاد العرب\ص١٤٢-١٤٣.

(٣٩)عثمان\حافظ\الإسلام والصراعات الدينية\ص٦٤.

(٤٠)السبحاني\جعفر\سيد المرسلين\ج٢\ص٢٨٨-٢٨٩.

(٤١)ابن هشام\عبد الملك بن هشام الحميري\السيرة النبوية\ج٣\ص٧٢٠-٧٢١.

(٤٢)الكتاب المقدس\اسفر التثنية\اصحاح ١٠\١٢٠-١٤.

(٤٣)ولفنسون\اسرائيل\تأريخ اليهود في بلاد العرب\ص١٥٧-١٥٨.

(٤٤)ابن كثير\اسماعيل بن عمر\البداية والنهاية\ج٤\ص٢٠٧.

(٤٥)ابن هشام\عبد الملك بن هشام الحميري\السيرة النبوية\ج٣\ص٨٠٠-٨٠١.

المصادر:

١- ابن خلدون\عبدالرحمن بن محمد\تأريخ ابن خلدون\مج ١\المكتبة العصرية\بيروت\٢٠٠٩م.

٢- ابن كثير\اسماعيل بن عمر\البداية والنهاية\ج٤\المكتبة الشيعية\الموقع الالكتروني: http://shiaonlinelibrary.com

٣- ابن هشام\عبد الملك بن هشام الحميري\السيرة النبوية\ج٣،١٢\ المكتبة الشيعية \ الموقع الإلكتروني: http://shiaonlinelibrary.com

٤- الاصفهاني\أبي الفرج\الأغاني\ج٢٢\تحقيق احسان عباس وأخرين\دار صادر\ط٣\٢٠٠٨م \بيروت.

٥- أمين\أحمد\موسوعة الحضارة الإسلامية\مج١ فجر الإسلام\دار نوبلس\ط١\٢٠٠٦\بيروت.

٦- جعيط\هشام \ في السيرة النبوية \ ج١٣\ دار الطليعة \ بيروت.

٧- السبحاني\ جعفر \ سيد المرسلين \ ج١٢\ بقلم جعفر الهادي\مؤسسة النشر الإسلامي\ط١٤\ ١٤٢٩\قم.

٨- الطبري\محمد بن جرير\تاريخ الطبري\ج٢\تحقيق محمد أبو الفضل\ دار المعارف\ط٥\ القاهرة.

٩- عثمان\حافظ\الإسلام والصراعات الدينية \ مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب \ القاهرة.

١٠- العربي\ محمد ممدوح \ دولة الرسول في المدينة \ الهيئة المصرية العامة للكتاب \١٩٨٨م.

١١- علي\جواد\ المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام\ج٦\منشورات الشريف الرضي.

١٢- الكتاب المقدس\اسفر التثنية\اصحاح ١٠\١٢٠-١٤\قناة المجد\الموقع الالكتروني: https://almagd.tv/bible/deu

١٣- المجلسي\محمدتقي\بحار الأنوار\ج١٩\المكتبة الشيعية\الموقع الالكتروني: http://shiaonlinelibrary.com

١٤- المفيد\محمد بن محمد بن النعمان\الارشاد\ج١\مؤسسة آل البيت لإحياء التراث\ط٢\ ١٤١٦هـ.

١٥- ولفنسون\اسرائيل\تأريخ اليهود في بلاد العرب\مطبعة الاعتماد\مصر\١٩٢٧م.

١٦- اليهودي\ابوسيفوس\تأريخ اليهود \شركة الطباعة المصرية\ط١\٢٠٠٦م.

Sources:

1- Ibn Khaldun\Abdul Rahman bin Muhammad\History of Ibn Khaldun\Volume\Modern Library\Beirut\2009.

2- Ibn Kathir\Ismail bin Omar\The Beginning and the End\Volume 4\Shia Library\Website: http://shiaonlinelibrary.com

3- Ibn Hisham\Abdul Malik bin Hisham Al-Himyari\The Prophet's Biography\Volumes 2,3\Shia Library\Website: http://shiaonlinelibrary.com

4- Al-Isfahani\Abi Al-Faraj\Al-Aghani\Volume 22\Investigation by Ihsan Abbas and others\Dar Sadir\3rd Edition\2008\Beirut.

5- Amin\Ahmad\Encyclopedia of Islamic Civilization\Volume 1 Dawn of Islam\Dar Nobles\1st Edition\2006\Beirut.

6- Ja'it\Hisham\In the Prophet's Biography\Volume 3\Dar Al-Tali'ah\Beirut.

7- Al-Subhani\ Jaafar\ Master of Messengers\ Vol. 2\ Written by Jaafar Al-Hadi\ Islamic Publishing Foundation\ 4th Edition\ 1429\ Qom.

8- Al-Tabari\ Muhammad bin Jarir\ History of Al-Tabari\ Vol. 2\ Edited by Muhammad Abu Al-Fadl\ Dar Al-Maarif\ 5th Edition\ Cairo.

9- Othman\ Hafez\ Islam and Religious Conflicts\ Egyptian General Book Authority Printing Press\ Cairo.

10- Al-Arabi\ Muhammad Mamdouh\ The State of the Messenger in Medina\ Egyptian General Book Authority\ 1988.

11- Ali\ Jawad\ Al-Mufassal in the History of Arabs Before Islam\ Vol. 6\ Al-Sharif Al-Radi Publications.

12- The Holy Bible\Deuteronomy\Chapter 20\10-14\Al-Majd Channel\Website: https://almagd.tv/bible/deu

13- Al-Majlisi\Mohammad Taqi\Bahar Al-Anwar\Volume 19\Shia Library\Website: http://shiaonlinelibrary.com

14- Al-Mufid\Mohammad bin Muhammad bin Al-Nu'man\Al-Irshad\Volume 1\Al-Bayt Foundation for the Revival of Heritage \2nd Edition\1416 AH.

15- Wolfenson\Israel\History of the Jews in the Arab Countries \Al-E'timad Press\Egypt\1927 AD.

16- The Jew\Bosephus\History of the Jews\Egyptian Printing Company\1st Edition\2006 AD.